ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

المنظور الفرنسي للصحراء الجزائرية "دوماس إيجان Eugène Daumas نموذجا"

The French perspective of the Algerian Sahara

(Eugene Daumas)

الدكتور مصطفى بن واز، جامعة طاهري محمد بشار
mostaphabenouaz@gmail.com
تاريخ الإرسال: 2019/09/24 تاريخ القبول: 2019/10/23 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص باللغة العربية: الصحراء وسط طبيعي له من المقومات المادية والبشرية ما يجعله في مركز تنافسي وسط غناه بموارده، جعلت المستكشفين والعلماء يجوبونه طولا وعرضا، بحثا عن كنوزه الظاهرة والباطنة والتي مازالت تستكشف إلى اليوم، لقد تعددت جنسيات الأوروبيين الذين مروا بهذه المنطقة يحملون هم العلم والاستكشاف ظاهرا ويتولون تأدية المهام باطنا، ومن هؤلاء الفرنسيون الذين دخلوا الصحراء واكتشفوها ورأوها بغير العين التي نرى بها نحن اليوم.
لقد تعددت مصنفاتهم وكتبهم في دراسة الصحراء في مختلف المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ودققوا في عادات المجتمع وتقاليده وفي لغته وثقافته، وفي الأرض التي يعيشونها عليها برمالها ووديانها وجبالها، حتى تكون سكنا لهم، فيما تحقق بعد ذلك في دخول الاستعمار الفرنسي.
الكلمات المفتاحية: الصحراء؛ المستكشفون؛ الفرنسيون؛ الثقافة؛ المجتمع.

Abstract:
The Sahara is a natural milieu and has such a great human and material ingredients, which allow it to be a competitive centre. It is a rich territory with important resources which was entirely explored during the past as well as today. Europeans from many countries went through this region in an apparent interest for science and exploration but internally

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

fulfilling their special missions.. Their works and books about studying the Sahara were numerous in the various social, cultural and economic fields and checked out the habits, the traditions, the language and the culture of the society as well as the land where they lived with its valleys, dunes and mountains which led to its colonisation.

Key words: Sahara; explorers; the French; culture; society.

مقدمة:

لقد شرعت البعثات الاستكشافية العسكرية في استكشاف الصحراء الجزائرية مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، غير أن الفرق بينها وبين الرحلات العلمية، أن أغلب رواد البعثات ضباط عسكريون حركتهم جهات رسمية كالوزارات والحاكم العام، أو تعاونت هذه الجهات مع جمعيات مختصة، في باريس وغيرها من مدن فرنسا، لانتداب مستكشفين من أجل أغراض اقتصادية وعسكرية توسعية.

إلى جانب تشكيلة تلك البعثات التي كانت تتسم في الغالب بالطابع العسكري، وفي وجود حماية عسكرية مزودة بالسلاح والذخيرة، فإن تقارير المستكشفين وملاحظاتهم ترفع إلى الجهات الحكومية الوصية، خاصة العسكرية منها، ولا يمكن نشر تلك التقارير والملاحظات في دوريات الجمعيات المختصة إلا بإذن من السلطات الفرنسية.

عبر المستكشفون الأوروبيون الصحراء الجزائرية في طريقهم إلى تمبوكتو، أو عند عودتهم منها، إلا أن بعضهم اتخذ من الجزائر منطلقا لاستكشافاته بعد احتلالها. وسجلوا معلومات هامة عن مناطق من الصحراء الجزائرية.

إن الذين حاولوا اكتشاف الصحراء الجزائرية، كانوا يدركون أهميتها مسبقا، ومن هؤلاء الأوربيون على اختلاف جنسياتهم بشكل عام، والفرنسيون بشكل خاص، وأصحاب المهام العسكريون والعلماء على وجه أخص.

من خلال الدراسات التي تركها هؤلاء فإنهم ما تركوا من شاردة ولا واردة إلا تحدثوا عنها بدقة متناهية، سواء تعلق ذلك بالجانب الطبيعي أو البشري أو الثقافي، لأنهم كانوا يحملون مهمة أساسية هي استكشاف المنطقة وما فيها من كنوز مختلفة تمهيدا لاحتلالها، وقد أنفقوا في سبيل ذلك الجهد والوقت والمال، وجندوا المجمعات العلمية، وإذا كنا سلطنا الأضواء على

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

دوماس، فلأن الرجل عاش في الصحراء الجزائرية مدة طويلة، ناهيك عن مؤلفاته الكثيرة في هذا المجال.

فإلى أي مدى استطاع الفرنسيون اكتشاف الصحراء الجزائرية؟ وما هي المجالات التي حاولوا معرفتها؟

إن الفرضيات التي ننطلق منها:

- أن الفرنسيين بذلوا كل ما في وسعهم من الجانب العلمي للاستفادة والإفادة،
- أن الفرنسيين خصوصا والأوربيين عموما كانت لهم أهداف معينة لم يكشفوها قصد الوصول للغايات التي رسموها.

فالأهداف المتوخاة هي نفض الغبار عن ما يتعلق بالجزائر وصحرائها وما كتبه الآخرون خاصة الفرنسيين الذين انكبوا انكبابا حقيقيا لسبر أغوار صحرائنا في جميع المجالات، ولذا نحن مطالبون بدراسة ما تركه الفرنسيون وتثمين والاستفادة من الإيجابيات ودحر السلبيات.

إن طبيعة الموضوع تفرض علينا إتباع منهجية سردية لعرض المعلومات ثم محاولة الاستنباط واستقراء الأحداث، خاصة وأن الموضوع يرتبط بالترجمة والتي تفرض علينا الحفاظ على روح النص بغية إدراك كنه ما يريده الكاتب وكيفية الطرح والرد.

وسنتعرض في مقالنا للنقاط التالية:

- التعريف بـ "إيجان دوماس Eugène Daumas" ورحلته،
- الجانب اللغوي والاصطلاحي،
- الجانب الطبيعي،
- الجانب البشري.

1. التعريف بـإيجان دوماس "Eugène Daumas" ورحلته:

"إيجان دوماس" فرنسي من مواليد سنة 1803م. جند في الجزائر سنة 1835م بمنطقة معسكر ثم تلمسان، إلى أن بلغ رتبة جنرال. إلى جانب وظيفته العسكرية كان كاتبا، له عدة

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

مؤلفات حول الجزائر. توفي سنة 1871م[1]. فيما بين 1843م و1845م، قاد عدة بعثات متتالية من مدينة الجزائر باتجاه مناطق مختلفة من الجنوب الجزائري.

كانت انطلاقته الأولى سنة 1843م من مدينة الجزائر إلى ورقلة عبر البليدة، المدية، البرواقية، بوغار، ثم سهل تاغية، سيدي بوزيد في الواجهة الشرقية لجبال العمور، وعبر هذه الجبال سارت القافلة إلى الأغواط التي وصلتها في اليوم الخامس عشر من انطلاقته.

بعد استكشاف منطقة الأغواط توجه "دوماس" إلى غرداية التي وصلها بعد خمسة أيام، وقبل مغادرتها عمل على استكشاف منطقة مزاب. وفي اليوم الرابع والعشرين وصل إلى ورقلة واستكشف مناطقها[2].

في الرحلة الثانية رغب "دوماس" في بلوغ منطقة توقرت. فتوجه من الجزائر إلى سور الغزلان، مسيلة، ثم بوسعادة التي دخلها في اليوم الثامن من رحلته تلك. وبعد استكشاف منطقة مسيلة وبوسعادة توجه إلى منطقة الزيبان، وصولا إلى بسكرة في اليوم الثاني عشر، ومنها إلى توقرت، وفي رحلته الثالثة عمل على استكشاف الطريق بين بسكرة والأغواط عبر سيدي خالد، مسعد، قصر الحيران، فالأغواط. مستكشفا بذلك منطقة أولاد نايل[3].

كما سلك الطريق الرابط بين توقرت وغرداية من الشرق إلى الغرب، ثم من توقرت إلى الأغواط، وعبر طريق بسكرة إلى غرداية في عشرة أيام، ومن توقرت إلى ورقلة. ومن توقرت مرة أخرى إلى قفصة التونسية مرورا بمنطقة وادي سوف ونفطة وتوزر، خلال تسعة أيام، حيث تمكن من استكشاف تلك المناطق ووصفها[4]. بعد ما تعرف على الجنوب الشرقي اهتم "دوماس" بالتعرف على مناطق الجنوب الغربي.

قام "دوماس" برحلة أولى من مدينة الجزائر إلى عين صالح واستكشاف مناطق جبال العمور، وجبال القصور، التي لم تستكشف بعد حيث اتجه إلى سيدي بوزيد، ومنه نحو الجنوب

1 - Narcisse Faucon: "Livre d'Or de l'Algérie" , Tome 1er- Biographies, Challamel et Cie, Editeur, Paris 1889, P P 196 –197 .
2 - Eugène Daumas :"le Sahara Algérien: Etudes Géographique, Statistique, et Historique sur la Région au Sud des Établissements Français", Langlois Leclercq, Paris, 1845, P40
3 - Ibid, P P .92 - 161.
4 - Ibid, PP. 85.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الغربي حتى دخل منطقة جبال العمور التي وصف مدنها وقراها، وأوديتها، ثم عبر جبال كسال وصولا إلى استيتن، وبوعلام، والغاسول، ومنه إلى برزينة، واصفا تلك المناطق وقبائلها[5]. ثم سلك طريقا نحو فقيق، حيث عبر قصور الأطلس الصحراوي وواحاته، ومنها اربوات والشلالة القبلية والظهرانية، وعسلة وبوسمغون، وتيوت، ثم العين الصفراء، سفيسيفة، مغرار الفوقاني والتحتاني، ومن سفيسيفة ثانية توجه إلى ايش، ومنها مباشرة إلى فقيق، تمكن "دوماس" من وصف تلك القصور والواحات، ووصف قبائل أولاد سيدي الشيخ والقبائل المجاورة لها، وقبائل حميان، وغيرها[6]

من فقيق توجه "دوماس" إلى تميمون عبر بلاد ذوي منيع، إلى أن دخل مناطق بلاد توات: (محارزة، قورارة، أوقيروت، توات، تديكالت) ثم تميمون، وفي اليوم الثامن والأربعين كان في عين صالح.عرف المناطق التي قطعها، ووصف قبائلها وصنفها.[7]

ثم عاود "دوماس" الرحلة من أجل استكشاف مناطق أخرى، حيث شرع في رحلة من مدينة الجزائر إلى عين صالح قاطعا المسافة في 22 يوما من السير، انطلاقا من تاقدامت إلى استيتن والغاسول، ثم عبر الصحراء وعبر أوديتها ومنها وادي مية، ثم جبل باتن، ومنه إلى عين صالح. استكشف خلالها طريق البيوض إلى تميمون. وأيضا طريق متليلي إلى تميمون مرورا بمنطقة الشعانبة (ورقلة، متليلي، القليعة). وطريق تميمون إلى عين صالح. ثم طريق متليلي . عين صالح[8]، إن المتتبع لهذا المسار ليدرك الجهد المضني لهذا الرجل والأهداف التي كان يسعى لتحقيقها في وسط طبيعي صعب مع نقص المواصلات بجميع أنواعها، أي صبر وأي جلد لهؤلاء الذين بذلوا كل ما في وسعهم من أجل تحقيق أهدافهم ؟

للرجل عدة مؤلفات:

- الصحراء الجزائرية دراسة جغرافية وتاريخية(1845)،
- القبائل الكبرى (1847)،
- الصحراء الكبرى أو مسار قافلة الصحراء إلى بلاد الزنوج(1848)،

5- Ibid, P 211.
6 - Eugène Daumas, " le Sahara Algérien", Op. Cit. P P 248-258.
7- Ibid, P P 275- 287.
8 - Ibid, P P 307- 317

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- خيول وعادات الصحراء (1858)،
- الحياة العربية والمجتمع المسلم (1869)،
- المرأة العربية.
- عادات وتقاليد في الجزائر (1853)،

فكتابه الأخير، وهو الذي اعتمدت عليه في المقال يتألف من 398 صفحة، مقسم إلى ثلاثة محاور:

- **المحور الأول:** منطقة التل موضحا الأعراق في الجزائر، والصفات الحضارية للعرب كالكرم مثلا وبعض العادات الشائعة في المجتمع الجزائري (استخدام الإثمد)، إضافة إلى الشعائر كالوضوء والصيام...
- **المحور الثاني:** منطقة القبائل ويوضح فيه المجتمع والمؤسسات.
- **المحور الثالث:** الصحراء، وفيه يتحدث عن دراسة عامة للصحراء، عن الخيول والقبائل، مرور بسباق الجمال، ومجتمع التوارق.

موثقا بكتابه الآخر الصحراء الجزائرية دراسة جغرافية وتاريخية(1845).

3. الجانب اللغوي والاصطلاحي:

من ضمن ما يتحدث عنه في المجال المذكور، يتحدث في محور الصحراء عن عموميات حولها من خلال المصطلحات العربية، مثل أصل كلمة الصحراء، فيقول:" إن الصحراء بلد مسطح وواسع للغاية ، حيث يوجد عدد قليل من السكان، والجزء الأكبر منها غير منتج ورملي"[9]، ويحاول أن يربط بين أصل الكلمة صحراء ووقت السحر، فيقول:"لقد أعطانا (الطلبة) أصل الكلمة.

9- Eugène Daumas , Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara, Librairie de l'Hachette, Paris, 1853, P 237.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

نسمي وقت السحر الفترة الفاصلة بين نهاية الليل وبداية النهار (الفجر)، حيث نستطيع أن نأكل ونشرب وندخن، الامتناع الصارم يجب أن يبدأ عندما نميز يبن الخيط الأبيض و الخيط الأسود من الليل "[10].

فالملاحظ أن آخر العبارة تستند إلى الآية القرآنية: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ[11].

ويحاول الكاتب إيجاد صلة بين مصطلحي (السَّحر) و(الصحراء) انطلاقا من العلماء الذي التقى بهم مثلما يقول، كما

يستعمل مصطلحات مرتبطة بمصطلح الصحراء كالقفار، الفيافي والفلاه[12].

أما في كتابه الصحراء الجزائرية دراسة جغرافية وتاريخية(1845)، يسلط الضوء على طبيعة الحرف العربي والاختلاف بينه وبين الحرف اللاتيني (الفرنسي)، وإنها لدلالة بالغة في استكشاف ليس فقط الأرض، بل طبيعة الإنسان ولسانه، بل ومحاولة التقليل من هذا اللسان، وقد سارى الأب ديفوكو في منطقة الهقار على هذا المنوال من خلال تأليفه لمعجم يتضمن ترجمة من التيفيناغ إلى الفرنسية، يتألف من مجلدين، تمت تأليفه بين 1918-1920[13]، هذا الرجل الذي تحمل العنت والتعب في سبيل تثبيت فكرة الاستعمار في منطقة حساسة عمقا استراتيجيا للجزائر، وقد حفلت عدة مؤلفات بالحديث عنه وعن جهوده في سبيل تثبيت أقدام الاستعمار في الجنوب الجزائري.

4. الجانب الطبيعي:

فدراسة الإنسان بالأمس مازالت مستمرة إلى اليوم على مستوى مخابر علمية عالمية في طريقة إخضاع الإنسان العربي من خلال معرفة نزعته وإقباله وإدباره حتى تسهل قيادته.

---

10 - Ibid 237

11 - سورة البقرة ، الآية 187.

12 - Eugène Daumas , Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara Op, Cit, P 239.

13- Charles De Foucauld ,Dictionnaire abrégé touareg-français (dialecte de l'Ahaggar), publié par René Basset, Alger, Carbonnel, 2 tomes.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وفي نفس المحور من كتابه عادات وتقاليد في الجزائر يتحدث الكاتب في دراسته عن الفصل بين الصحراء والتل موضحا هذا الفاصل فيقول: من خلال ملاحظات المهندس فورنال **M. Fournel** الحد الذي يفصل الصحراء عكس كل الآراء المقبولة حتى الآن ألا يتجاوز في كل الحالات بضعة أمتار فوق مستوى سطح البحر... وانطلاقا من الساحل ترتفع الأرض تدريجيا إلى غاية نقطة والتي تمثل موقعين في باتنة، حيث نجد بسكرة مثلا ترتفع بـ 75 مترا عن مستوى سطح البحر[14].

إن هذه المعطيات البارومترية توضح الاختلاف ارتفاعا وانخفاضا بين التل والصحراء، وما يترتب عن ذلك من تغيرات مناخية ونباتية وحيوانية ،إذا ما قارنا ذلك بالمناطق الساحلية وشبه الساحلية، وهي دراسة يبدو أن فرنسا أجرتها لمعرفة مختلف المعطيات الطبيعية تسهيلا للمستقبل القريب الذي سطرته في استغلال الأرض ومعرفة غناها النباتي والمنجمي.

ويستغل الجانب الجغرافي ليحدد الدائرة 29 عرضا بداية للصحراء بمعنى كلمة (الفلاه)، حيث تبدو الحياة منعدمة إلى غاية الدرجة 27 ، هذه الحياة التي تظهر عند التوارق، لكنها ما تلبث أن تغيب مرة أخرى إلى غاية بلاد الزنوج."تنشأ الصحراء على عمق رملي، هنا جبال، وهناك وديان ومستنقعات، وهنا يتجمع قبائل البدو في خيام من شعر الإبل في فضاء متوحش..." [15]

وفي نفس الوقت توجد جبال موازية للبحر في الشمال تبدو متوغلة نحو الشمال في الشرق وتنخفض كلما اتجهنا نحو الغرب، تقع فوق بحر من الرمال يسميها العرب العرق... ويتحدث بعد ذلك عن تساقط الأمطار وتكوينها لوديان مثل واد جدي وواد مية المحتويين بين الجبال[16].

وفي هذا الصدد، فإن هؤلاء المستكشفين يرسمون عدة طرق منها مسارات الوديان وما يترتب عن ذلك من إقامات سكانية نظرا لأهمية المياه، التي تعد أساسا لا غنى عنه في قيام الحضارات.

14 - Eugène Daumas , Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara Op, Cit, P 239 – 240.
15 -Ibid, P 241.
16- Ibid, P 241.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

في المنطقة الأولى من الصحراء، تكون المراكز السكانية، منفصلة في بعض الأحيان عن بعضها البعض بمساحات خالية تمامًا، على الرغم من أنها أكثر بكثير من التل. تكون في بعض المرات منفصلة بمسافات جرداء وقاحلة تماما، وبعيدة لمسافة أيام مشيا، على كل الخطوط وفي كل الاتجاهات توجد آبار، إذ تعد محطات توجيه لمعرفة الطرق، نادرا ما نسافر خلال ثلاثة أيام ولا نجد أحدا، والماء يبقى متوفرا لوجود قربتين تحمل على ظهر الجمال...[17].

وفي هذا استعراض لواقع الصحراء وصعوبة التعامل معها خاصة في الحر وما يترتب عن ذلك من قسوة العيش للسكان.

لكل واحة كبرى في الصحراء مدينتها الرئيسية حولها يتجمع القصور... تصل القبائل في الربيع لتغذية أنعامها مهاجرة خلال الصيف من أجل شراء الحبوب من التل، دائما في العودة في شهر نوفمبر من أجل التخزين، وجني التمر للتموين لإمضاء الشتاء مع العائلة تحت خيمة الشعر[18].

ولنا أن نتساءل في اختلاف الإقامة في الصحراء بين مناطق حضارية ومناطق بدوية آنذاك، رغم أن الطابع العام يعتبر بدائيا، لماذا يتجمع أغلب الرجال حول الأحواض؟

لأن الارتباط بالنخيل جعل أهلها يتجمعون حولها لأنها مصدر غذائهم، مما يعطي الانطباع بأن هؤلاء ليسوا عربا، كان آباؤهم يعيشون على الساحل، في مدن وقرى مطاردين بسبب الغزوات المستمرة، مدفوعين نحو الداخل حاملين غريزتهم الحضارية ضمانا لبقائهم، وأقاموا حيث أضحت الحياة هنا ممكنة[19]، وهل هذا الكلام صحيح؟

إن الكاتب يشرح إشكالية إقامة سكان الصحراء وحركيتهم، دون أن يعطي أي تبرير علمي أو سند يوضح هذا التصور الذي يحدده بل ذلك يبدو اجتهادا منه، ليصل في الأخير بعدم الاندماج بين البدو والحضر، ثم إن استعمال الكاتب لمصطلح "مطاردين" ينم عن جهل كبير خاصة أنه لم يحدد الفترة التي يقصدها جهلا وتجاهلا قصد الانطباع بأن المجتمع كان دوما في مواجهات بين التل والصحراء.

17 - Eugène Daumas, Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara Op, Cit, P 243.
18 - Ibid, P 243
19 - Ibid, P 244.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

إن الكاتب يحاول أن يصور العلاقة المتوتر في الصحراء بين البدو والحضر، وتداخل وظائف كل منها ما تعلق بالأرض وتربية الحيوانات، محاولا إعطاء فكرة حول رفض الجميع العيش ضمن فضاء واحد ناسيا أو متناسيا طبيعة المجتمع الجزائري وارتباطاتها الروحية والثقافية التي أهلته للديمومة والاستمرار رغم كل الظروف الصعبة التي مر بها.

إن هذا الطرح ممكن جدا، وطبيعة الناس في اختلافهم في وظائفهم وميولاتهم مثل اختلافاتهم في أعراقهم وألسنتهم، لكن يبدو أن ما يعتقده الكاتب، ويحاول أن يسوقه لنا التفرقة العنصرية على أساس الصراع على الأرض دون ما ضوابط أخلاقية شرعية أو قانونية بين طرفين لا تجمع بينهما أية روابط.

ويوضح الحركة الدائمة لحاجة العرب (البدو) للحبوب من المنطقة التلية مما يفسر هذه الحركة الدائمة خاصة وأن الصحراء قاحلة لا تنبت حبوبا.

إضافة لحاجة الأكل لأنعامهم، وباتجاههم نحو التل يستغلون ترحالهم لكلأ أنعامهم، وفي القيام بمقايضة ضريبة اللزمة مقابل ما يحتاجه البدو من حبوب، تمور وأغطية...[20].

ومعنى هذا وجود تكامل اقتصادي بين الصحراء وتلها من خلال المقايضة، مما يعطي الانطباع على الحركية التجارية بين الفضاءين وحاجتهما لتحقيق وجودهما، وهي الضرورة التي تفرض منطق التعاون.

5. الجانب البشري:

وبعد استعراضه لطبيعة الصحراء مناخا... يتحدث عن سكان الصحراء من خلال علاقة البدو بالحضر، يتوجه بالحديث عن بعض صفات العرب وخصائصهم، فيقول:"الإنسان العربي يسعى لقوة الاحتجاج للحياة الخارجية، فهو عصبي، رزين وقاس" [21]

وهل تجتمع هذه الصفات في رجل واحد إن لم يكن القصد منها ذم العرب ؟

ثم يتحدث عن التوارق فيقول:"يتحدثون التارقية، هذا اللسان الذي يبدو أنه في علاقة كبيرة مع الزناتية، فسكان توات يفهمون لسان سكان التوارق، نساؤهم لا يخفين وجههن، وهن

20 - Eugène Daumas, Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara Op, Cit, P 249.
21 - Ibid, P 253.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

جد جميلات وأكثر بياضا مثل المسيحيات" [22]، إن المثير للتساؤل تشبيههن بالمسيحيات، وهل ثمة علاقة بين الدين والجمال؟ وهل غير المسيحيات غير جميلات؟

ويعرج على لباسهن شكلا ولونا بدقة متناهية.

يحاول الكاتب إعطاء الانطباع بابتعاد التوارق عن الإسلام وعنصريتهم تجاه العرب، قائلا بسوء العلاقة بين العرب والتوارق كسوئها بين الغرب والأتراك[23]. ولكن هل هذا صحيح؟

إن دوماس يحاول إسقاط واقع أوروبا على واقع الجزائريين في الصحراء حيث يرى أن الخلافات بين البدو والحضر كخلافات الأتراك مع الفرنسيين، لكن الأمر شتان على اعتبار أن البدو والحضر شعب واحد فرقت بينهم ظروف العيش، عكس الفرنسيين والأتراك الذين يختلفون في كل شيء في الجغرافية والتاريخ والعرق والدين.

إن الرسائل واضحة، والأهداف مرسومة، والوسائل متوفرة. فهل وعينا؟

يقول الدكتور محمد سعيد القشاط في كتابه التوارق عرب الصحراء الكبري:"الشعب التارقي شعب مسلم من أصل سامي احتفظ بهويته الحضارية الأصلية[24]:

ويواصل قائلا:"ويعتبر مجتمع التوارق من المجتمعات المتفتحة في الإسلام والخالي إلى حد بعيد من العقد والتعقيد."[25]

ويبدو أن الهدف واضحا من خلال إعطاء صورة سيئة عن هذا المجتمع بغية قطع الصلة بينه وبين المجتمع الجزائري، وبغية تحقيق ذلك تعمل كثير من المنظمات في الصحراء الكبرى وجدوا ضالتهم في شعب الصحراء كمرشدين، أو عمال وسائقين في المحميات الطبيعية أو المناجم؛ ولكن بدأت المنظمات التبشيرية تحيك لهم الخطط لإبعادهم عن دينهم وتقاليدهم في سبيل تنصيرهم، وإن كان ذلك آخذ بعدًا آخر في بلدان الحزام الطارقي بإلحاق بعضهم في

22 - Ibid, p 364.
23 - Ibid, P 365.
24 - القشاط. محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء، مركز دراسات وأبحاث، القاهرة الطبعة الثانية، 1989، ص 29
25 - القشاط، المصدر السابق، ص 89.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الوظائف، وأبنائهم في المدارس، ورويدًا يتم تذويبهم في سلك العمل مع الإرساليات الأجنبية ليحدث السقوط كما حدث في تشاد، والنيجر، والجزائر، ومالي، والجنوب الليبي[26].

كان هدف الحملات التنصيرية الغربية يتجاوز هذا الحد إلى العمل من أجل تنصير الشريط الصحراوي الفاصل بين شمال إفريقيا العربي المسلم وغرب إفريقيا الأسود المسلم، والممتد من شرق جمهورية النيجر إلى حدود مالي مع موريتانيا.

لقد تعامل الكثير من المنظمات التي اتخذت من الصبغة الدولية غطاء لإخراج أبناء الكثير من أبناء القبائل التي تعيش على الرعي من الإسلام بوازع الاحتياج للدعم الإغاثي والطبي؛ لقد تعاملوا معهم بكثير من الانتهازية؛ فالكثير من المؤسسات الإغاثية الغربية تعمل في التنصير مع مدها يد العون للجوعى[27].

وفي ارتباط بموضوع بارتباط أهل الصحراء بدينهم يقول دوماس :"لكل حي مسجده ومدرسته، حيث يدرس معلمو القرآن الأطفال القراءة، الكتابة والدين"[28]، وكأمثلة يوضح:"لـ بوسعادة خمسة مساجد..." [29]

يقول دوماس:"إن لقب شيخ في الدين المحمدي وراثي من الأب إلى الابن، معه تستطيع الطبقة الأرستقراطية والثيوقراطية السيطرة على أكبر عدد من الأشخاص"[30].

إنني أعتقد أن هذا المعطى يجانب الصواب، فمصطلح الشيخ يرتبط في الحضارة الإسلامية بالمعلم والعالم، كما يرتبط بسيد القبيلة وليس بالضرورة أن يكون وراثيا، لأن ذلك لا يرتبط بالأشخاص، وإذا سلمنا جدلا بهذا، ما موقع الطبقة العليا ذات المال والدين من هذا المعطى، وفي المقابل ما موقع الطبقة الدنيا ؟

---

26 - عادل الصديق(2015)، الطوارق.. لا هوية ولا وطن، consulté le https://islamstory.com(08/11/2018)

27- عادل الصديق(2015)، الطوارق.. لا هوية ولا وطن، consulté le https://islamstory.com(08/11/2018)

28- Eugène Daumas, " le Sahara Algérien", Op. Cit. P 74.
29- Ibid, P 93.
30 - Ibid, P233.

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وأهل توات يطبقون الشريعة المحمدية في كل شعائرهم يصلون، يصومون ويتوضأون ويشهدون لمحمد بالرسالة، ويختتنون، لديهم مساجد ومدارس حيث يتلو الأئمة القرآن، والمناقشة حول الكتاب المقدس...وعيش السكان من شحم الضأن والإبل، والسمن والطعام، التمر والقمح الذي يأتي من التل[31].

كما كان أهل توات يحتفلون بالمولد النبوي من خلال مجموعات تحمل كل واحدة علمها من أجل تقديم الولاء للشيخ[32].

يبدو أن الكاتب يريد إعطاء طابع الطقوس الدينية للإسلام، من خلال ممارسات تكون قد سادت أم لم تكن في المجتمع الصحراوي، هذا المجتمع الذي أخذ الكثير من دينه في الكرم والتسامح والإخاء.

إن محاولة إضفاء الكاتب العصبية القبلية على الخلافات بين أبناء الصحراء، تنم عن تصور خاطئ وخطير لاعتبارات ما يعرف عن أبناء الصحراء أو للتقاليد المتوارثة، ناهيك عن أثر الإسلام في هذا المجتمع.

إن هؤلاء المستكشفين عندما يتحدثون عن مسارات المياه وقوافل السكان وعلاقة التل بالصحراء إنما يبعثون برسائل واضحة لرؤسائهم في مجالات شتى. فما الذي استفدنا منه نحن؟ أليست الصحراء غنية بمواردها الطبيعية، الزراعية، المعدنية والطاقوية؟ أليست مصدر رزق لنا؟ هل أدركنا حقيقتها خاصة في بعدها الجيوسياسي وما يترتب عن ذلك من تحقيق للأمن في البلاد باعتبارها عمقا استراتيجيا نحو إفريقيا.

هل من الصدفة أن يهتم المستكشفون الأوروبيون بالصحراء أرضا وماء ومناخا ؟ ألم تستفد فرنسا منها؟ ألم تتعثر المفاوضات الجزائرية الفرنسية بسبب الصحراء وبترولها؟ ألم يقل الجنرال ديغول عن الجزائر (الفردوس المفقود)، إني أعتقد جازما إن الفردس هو الصحراء رغم خوفنا من سكناها والإقامة بها.

6. خاتمة:

31 - Ibid, P 277
32 - Ibid, P 288

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

- الصحراء غنية بثرواتها المادية والبشرية منذ القدم وإلى اليوم، وموروثها الحضاري هو سبيل استمرارية ساكنتها رغم كل وسائل التشكيك.
- سعى الأوروبيون على اختلاف جنسياتهم لاستكشاف الصحراء، والبحث في مكنوناتها وكنوزها عن طريق بعثات علمية واستكشافية تمهيدا لاحتلالها.
- درس الأوروبيون وخاصة الفرنسيون الصحراء بدقة متناهية فعرفوا تربتها، مناخها ومجاري مياهها، عبروا جبالها وأقاموا فيها كأنهم جزء منها.
- تعرف المستكشفون على مجتمع الصحراء، ثقافة، لغة، دينا، عادات، تقاليد وأعراف، دققوا في طبعه، في إقباله وإدباره عن طريق مخابر متخصصة مازالت إلى اليوم تقوم بدورها.
- إثارة النعرات العرقية والاختلافات اللغوية وإن كانوا يعتقدوا أنهم نجحوا، فهم في الحقيقة قد فشلوا رغم ما اعتقدوه أنه نجاح.
- هل ندرك اليوم حقيقة صحرائنا بثرائها وغناها بطاقاتها الناضبة والمستدامة، بمعادنها الثمينة والرخيصة، بآثارها المادية واللامادية ؟
- هل ندرك اليوم حقيقة صحرائنا من خلال سكانها، كرمهم، فضلهم، صبرهم، آمالهم وآلامهم، ما الذي نعرفه عن صحرائنا سوى الحرارة والحيات القاتلة التي نخافها عن بعد.
- أرجو أن تتوجه أنظار الباحثين حول الدراسات الصحراوية عموما والدراسات الأوروبية خصوصا والدراسات الفرنسية للصحراء الجزائرية بالأخص، علما أن ثمة مواضيع مازالت بكرا، تتعلق بالجوانب الانتربولوجية، التاريخية والدينية والعرقية، فالمكتبة الوطنية الفرنسية زاخرة بهذه المواضيع لمن أراد أن يبحث فيها.

وأقول أخيرا كيف صبر أولئك الأوربيون، فقدموا تقاريرهم بدقة عالية لرؤسائهم، وأدوا مهامهم على أكمل وجه، وبذلك يسروا دخول الاستعمار إلى بلادنا، وفي المقابل لا نستطيع أن نقوم بما قاموا به رغم أن الصحراء وطننا وهي جزء لا يتجزأ من الوطن برمته.

7. قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

- ثانيا: المصادر والمراجع

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

(01) القشاط. محمد سعيد، التوارق عرب الصحراء، القاهرة: مركز دراسات وأبحاث، الطبعة الثانية، 1989.

(02) عادل الصديق(2015)، الطوارق.. لا هوية ولا وطن، https://islamstory.com (consulté le 24/09/2019)

(03) Charles De Foucauld, Dictionnaire abrégé touareg-français (dialecte de l'Ahaggar), publié par René Basset, Alger, Carbonnel, 2 tomes.

(04) Eugène Daumas, le Sahara Algérien : Études Géographique, Statistique, et Historique sur la Région au Sud des Etablissements Français, Langlois Leclercq, Paris, 1845, 339 Pages

(05) _____: Mœurs et Coutumes l'Algérie, Tell, Kabylie, Sahara, Librairie de l'Hachette, Paris, 1853.

(06) Narcisse Faucon, Livre d'Or de l'Algérie, Tome 1er- Biographies, Challamel et Cie, Editeur, Paris 1889.